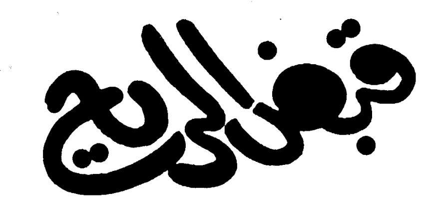


سالم محمود سالم





١٨ ش مصطفى كامل - البر الشرقي - بجوار بازار الجمهورية ومكتب بريد البر الشرقي - شبين الكوم - المنوفية

تليفون : ٠٠٢٠٤٨٢٥٢٧٩٩٥
فاكس: ٠٠٢٠٤٨٢٥٨١٠٢٣
محمول : ٠٠٢٠١٢٤٣٩١٧٤٢
٠٠٢٠١٢٦٩٩٤٧٠٧

BALANCIA
BUPLISHERS
Egypt
*Tel:*0020482527995
-Fax : 002029288129
Mob : 0020124391742
0020126994707
E-Mail :
anagmyy@yahoo.com
Web Location :
http://www. balancia.com

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٨/٢٨٤٣
I.S.B.N. : 977-6192-06-8

14.8X 21 cm .

إهداء

طالما فاضت بين يديك الأساطير/ الآمال

هل أغلقت محرابك وسكن الصمت أيامك ؟

هيا حطم جمود وحدتك واغرس في القلب مباهج الحياة ..

إلى والدي

أما قبل

الهروب إلى الواقع

قبض الريح
بين البنية الرمزية
والشكل الفانتازي

بقلم الدكتور

هيثم الحاج علي

كلية الآداب - جامعة حلوان

ينطلق السرد - دائما - من محاولة رصد الواقع عبر رؤية مخصوصة ، تتجلى فيها أهداف ذات مدى بعيد .

ومن هنا لا يكون الرصد بالضرورة موازيا للواقع ، بل معالجا له ، تبعا لاستراتيجيات السارد التى تتجلى فى صورة تكوين حدثي ذو طبيعة تختلف عن مجرد الرؤية الظاهرية ، وتتعداها إلى عمق الوجود ، وهو الأمر الذى يبدو فى اجلى أشكاله واضحا فى اشد فنون السرد حساسية .. القصة القصيرة .

يعبر سالم محمود سالم عن رؤية خاصة " كذا " لواقع يبدو فى ظاهره إقليمياً ، لكنه – هذا الواقع – يقوم مقام الصورة المرآوية ، التى ربما سيحلو البعض أن يعاملها معاملة الرمز ، هو الرمز الاستعارى القائم على التشابه التمثيلى بين صورتين متكاملتين يتم حذف أحداهما ، وإبقاء الأخرى مع إظهار وجه الشبه خفيا شفيفاً – حسب لغة البلاغيين العرب – وهو الأمر الذى يمكننا إدعاء كونه يمثل

ظاهرة تقنية فى مجموعة " قبض الريح " لسالم محمود سالم ، تلك المجموعة التى على الرغم من قصرها فإنها تمثل إحدى اهم ظواهر القصة القصيرة فى المنوفية ، بل إنها تعبر عن اتجاه قصصى بدا فى الانتشار على المشهد الأدبى العربى فى السنوات الأخيرة ، معبراً عن وجود حقيقى مختلف لجيل جديد يكتب السرد بعد تمثل أهم مكوناته واصبح يعامله بوصفه فناً ذا طبيعة تنتمي إلى الواقع العربى ، لا مجرد فن مستورد من الغرب ، وهو الأمر الذى جعل من القصة القصيرة ، بوجودها المحايث فناً معبراً عن واقع ذى طبيعة خاصة ، ربما يمكن التعرف عليها من خلال ملاحظة مجموعة من الظواهر التقنية والموضوعية فى هذه المجموعة القصصية .

١- تكوين الرمز :

تبدو غالبية قصص مجموعة " قبض الريح " للوهلة الأولى منتمية إلى ما يمكن تسميته الواقعية السحرية ، التى تستغل مفردات الواقع ومكوناته من أجل تكوين صورة فانتاستيكية غير ان هذه الطريقة لا تتجلى فى صورتها الواضحة إلا عبر رؤية مجموعة من الرموز التى تعتمد على مكونات وراثية فى أغلب أحوالها .

حيث تبدو السفينة فى قصة " قبض الريح " معتمدة

– فى صورة ما – على رمز السفينة فى قصة موسى والخضر ، لتبدو العالم كله – فى لحظته الراهنة - مثل تلك السفينة التى فقدت اتجاهها ونفذ وقودها نتيجة للأعمال الجنونية التى يمارسها الذين يعيشون على ظهرها ، لكن هذا التفسير الأولى لا يمكن أن يكوّن رؤية كاملة للقصة ، حيث يتداخل الخطاب السياسى مع هذا الخطاب البشرى وهو ما يتضح فى رمزية صورة قائد السفينة – المنوط به فى الاساس تحقيق الأمن على سطحها – والذى يبدو لا مباليا ولا مهتما بكل الأفعال الجنونية التى يمارسها الركاب من الرقص عراة إلى ممارسة الجنس على ملأ إلى الصراع الدموى على الأنثى ، لتصبح السفينة دالة على الوطن الذى فقد اتجاهه حين فقد قضاياه .

إن تكوين الرمز فى هذه القصة وإن انطلق من رؤية تراثية فإنه لم يغفل الإمكانات الجمالية التى يمكن أن تنتج عن سحب هذا المكون التراثى (السفينة) إلى أرضية الواقع ، وبالتالى إمكانية تطوير هذه الرؤية التراثية عن طريق استغلال عناصر حديثة مثل العرض السينمائى لتتضام هذه العناصر جميعها من أجل إبراز خطاب سردى نهائى ، اعتمد على تجاور المشاهد فى تصاعد موحٍ بانفلات الأمور ، غير إنه من المهم ملاحظة تلك الجمل التعليقية التى تظهر بين

الحين والأخر على لسان السارد - البطل - الذى يمثل على مستوى رمزى آخر الإنسان المعاصر الضائع بين لا مبالاة حكامه بوجوده ، وطغيان نزاعات غير إنسانية على واقعه ، لتبدو مع هذه الجمل عبثية الحياة التى يعيشها هذا البطل ، ولتتضح جوانب الصورة الرمزية على المستويات السردية ، لتكون حركتها الخاصة وتكويناتها الملتصقة بها على المستوى العضوى ، بما يميز القصة القصيرة الحديثة .

وتتكرر بنية الرمز المعتمد على دوال تراثية لدى سالم محمود سالم ، فى هذه المجموعة فى عدد من القصص الأخرى لعل ابرزها قصة " مقام سيدنا الولى " التى ترتكز على فكرة الصراع الإنسانى على الأرض وبالتحديد قابيل وهابيل غير أنه عندما يلبس البنية الرمزية تلك ثوبها الميتافيزيقى ، وهى أولى به ، يكون الحد ناتجاً عن وجود الولى الذى اختار الاختفاء - ببركاته - عن هذه الأفدنة الخمسة بعد أن اختار الأخوان ساحات المحاكم ميداناً لصراعهما حول هذه الأرض .

إن الفكرة واضحة ، معتمدة على قصة الخلق ، لكنها تقوم بمد أواصر الصلة بين الأجداد وأحفادهم ، ليكون هذا الصراع طبيعة إنسانية تنسحب على العالم المعاصر بمكوناته ومفرداته ، غير أن ما يلفت النظر فى هذه القصة هو اعتمادها

على الحوار بين شخصين احدهما السارد ليكون هذا الحوار مدخلاً لإسباغ تفسير عقلى للمسألة من ناحية ، ومن ناحية اخرى ليكون ذلك مسوغاً لتبرير وجود الولى واختفائه ، ولإيضاح عمق الأزمة ومكوناتها .

إن رمزية الأزمة – إذن – هي ما يتحكم فى اتجاهات السرد لدى سالم محمود سالم ، هذه الأزمة التى تبدو وجوديه فى اغلب احوالها ، لا تعتمد على الشكل المنطقى بقدر ما تعتمد على وجودها المحايث بوصفها ازمة ، وهو الأمر الذى يتضح فى العديد من القصص الأخرى ، ولعل ابرزها (الابن البكر) ، وهو الأمر الذى يمكن ان يدخلنا إلى تقنية التعامل مع شكل السارد فى هذه المجموعة .

٢- أشكال ظهور السارد :

يعد السارد واحداً من اهم مكونات العمل السردى ، وذلك لكنه لا يمكن بداية تصور سرد يسير من تلقاء نفسه ، من ناحية ، ومن ناحية اخرى فإن الشكل الذى يظهر به السارد يعد خطاباً فى حد ذاته، او على الأقل يعد معبراً مهما للخطاب القصصى الذى يبثه المؤلف داخل نصه ، وهو الأمر الذى يمكن رؤيته بوضوح داخل مجموعة " فى قبض الريح " ، حيث يبدو اختيار شكل السارد واضحا على درجة عالية من

الشفافية والدقة فى آن واحد ، خاصة إذا لاحظنا التداخل الذى يحدث أحياناً والذى ينتج عن ظهور أكثر من ضمير داخل القصة الواحدة ، كأن يظهر السارد مع البطل كما فى " أولاد الظلام " ، وكما فى " مقام سيدنا الولى " ليبدو ذلك داعيا إلى تحريك الأحداث عن طريق التصادم بين وجهتي نظر تتحكمان فى سير النص ، وليكون هذا التصادم شارحا ومبرراً معلقاً فى كثير من الأحيان ، تعليقات تضع القصة فى مواجهة أزمتها مباشرة ، وهذا الشكل من أشكال ظهور السارد يبدو فى عمقه نافذاً إلى بؤرة الأزمة الاجتماعية ، أو الانسانية التى يدور حولها النص ، وإن بدا – فى ظاهره – مشوشاً فى بعض الأحيان ، خاصة عندما يبدو ظهوره مبتسراً ، كما فى قصة " مقام سيدنا الولى " التى يدور معظم أحداثها على لسان سارد عليم ببواطن الأمور يقوم بسرد حواره مع شخص آخر هو الذى يحكى حكاية الولى والأخوين والأفدنة الخمسة ، لكن السارد يأبى إلا أن يظهر فى صورة الضمير (أنا) مرتين على مدار القصة ، مرة عندما يصرح . (سألته).. ليكون الفعل هنا دافعا إلى حركة الأحداث ومرة أخرى " بدا صاحبى غاضبا " حيث تبدو ياء المتكلم هنا مبلورة لوجهة نظر السارد التى تظهر فى فهمه هو للموقف .

وإذا كانت قصص المجموعة تتراوح فى استخدام شكلين

أساسيين من أشكال السارد ، وهما الراوى العليم ببواطن الأمور والمشاهد ، فإن اختيار شكل السارد يعد فى الغالب مفسراً لكثير من عناصر الخطاب السردى ، فالسارد العليم ببواطن الأمور يكون منتظما داخل البنية الرمزية التى سبق الحديث عنها ، ذلك لكى يسد فراغات السرد ، ويقوم بدوره الإعلامى للمتلقى على وجهه الأكمل ، بل إنه كثيراً ما يُفهم المتلقى ما قد يغمض من الحوادث المتسلسلة ، وهو ما يتواتر كذلك فى القصة التى تقوم على بنية حديثة تقليدية الشكل ، مثل قصة "الابن البكر " ، و" عجباوى " .

ومن ناحية أخرى فإن القصص التى تستخدم الضمير " أنا " المشاهد للأحداث أو المشارك فيها تقوم على أشكال مونولوجية تعتمد البوح طريقة لإنشاء النص القصصى ، وهو ما يمكن ملاحظته فى قصة مثل " درس خصوصى " .

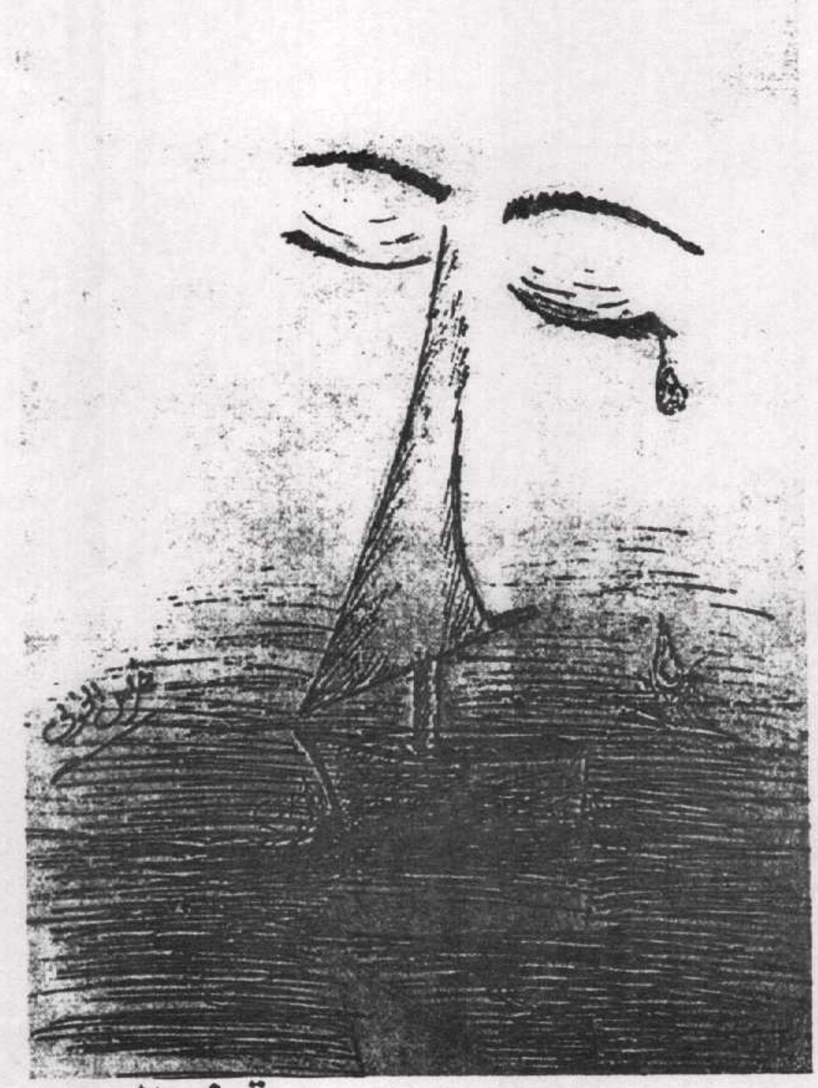
وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر بشئ من الانتباه إلى لغة القص لدى سالم محمود سالم ، حيث هى لغة تستخدم الإمكانات الشعرية من دون تزيد ، وإن أسرفت أحياناً فى استخدام المجاز ، فإن هذا الإسراف لا يسقط بالنص فى غياهب الغموض ، حيث المجاز هنا ينتمى إلى حقل البلاغة التقليدية ، ومن ناحية أخرى يمكن عد هذا الاستخدام من قبيل التجميل الناتج عن رغبة فى إسباغ وجهة نظر السارد

على منظومته السردية ، فيما يعد ملمحا مهما من ملامح السرد الذى يحاول مواجهة الأزمة الاجتماعية فى صراحة ووضوح .

إذا كانت مجموعة " قبض الريح " تتكون من عدد محدود من القصص ، فإن هذا العدد استطاع الولوج إلى العديد من المناطق المتفجرة للسرد العربى المعاصر ، غير أنه فى الوقت ذاته يحاول مجابهة مجموعه من الأزمات الاجتماعية التى تبدو إقليمية أو محلية ، لكنها تبدو أشد انفتاحا على الأزمات الإنسانية التى يعانيها إنسان العصر الحاضر ، وهي — فيما يبدو — واحدة من اهم مقومات القصة القصيرة المعاصرة ، التى تبدو سماتها واضحة فى قصص سالم محمود سالم ، وعلى الأخص فى مجموعته " قبض الريح .

د. هيثم الحاج على





قبض الريح

١

بعد ان فرَغت من زيارة صديق

لي ..

انطلقت اعدو صوب المَرسى

لأستقلَّ المركب .. الذي سيعبر

بي النهر إلى الشاطيء الأخر ..

حيث اقطن .

وما إن وطئت قدماي سطح المركب - الذي وجدته وقد ازدحم بالناس - حتى شعرت بأنني اغوص في أعماق الزمان والمكان وان المركب قد خرج من جوف النهر ولفظهم للتو ، ثم طفا على صفحة الماء محمّلا بهؤلاء القوم المنحدرين من اصول شتى ورد ذكرهم في حكايا الأولين ..

اشعل قائد المركب المحرك وعلا ضجيجه مزمجرا إيذانا بالتحرك في اتجاه الشمس التي مالت للغروب فتعانقت مع مياه النيل الفضية ..

استنشقت عبق السحر من حولي وامتلأ صدري بهواء بارد مفعم بشذى الرطوبة .

سطع ضوء النيون عندما تكاثف الظلام في المدى وهبط محتضنا المركب .

سر ما مقبض بدأ يشغلني ..

- هل هو السر الأقرب إلي من حبل الوريد ؟

توقف عقلي عاجزا

اصابتني نقطة التعمية المطلقة .

٢

التفتُّ إلى الشاطيء الشرقي فوجدته قد اختفى ..

جلستُ في ركن قصي احتضن وهمي وأزدرد خوفي ..

سمعت صخبا وضجة ..

رايت على ظهر المركب دائرة تسطع بالضوء مزدحمة بأناس يرقصون رقصاً هستيرياً تصحبه موسيقى صاخبة تتلاشى في البعد.

الحارس قابع على مقعده ساكن في حلته السوداء .

المركب يتهادى على صفحة النيل في دلال وخيلاء ، والقائد يمسك " بالضُمان " لا يلتفت يمنة ولا يسرة .

مكثت أرقب بطرفٍ خفي هذا الرقص العجيب الذي وجدته وقد أثلج صدر القائد .

البعض على جانب من سطح المركب يراقبون منكمشين في مقاعدهم خارج دائرة الضوء .



بلغ الرقص أشده ..

خلع احد الراقصين سترته وطفق يلوح بها، ثم تركها من يده فحملها الهواء وألقى بها على صفحة النيل الخالد .

لحظات ثم خلع ثانٍ سترته ايضاً، ثم ثالث ورابع ، حتى صار الرجال يرقصون ونصفهم الأعلى عارٍ .

التفتُ ناحية الحارس فوجدته عاقداً ذراعيه ، ثابت الجنان، تعلو وجهه ابتسامة ساخرة ..

الأغرب أن النساء قد فعلن مثلما فعل الرجال .

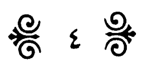
بدات واحدة بنزع "بلوزتها"، فانكشف صدرها المترجرج تغلُه حمالة رفيعة، قلّدتها الأخريات .. وما هي إلا لحظات

حتـى انفـرط العقـد وتجـرد الجميـع مـن ملابسـهم وصـاروا يرقصون مترنحين !

ولايـزال الـبعض يراقـب بحـذر ، والقائـد يمسـك " بضُمانه " مثلج الصدر ، والحارس مبتسم والرقص على اشده

همست لنفسي مرتابا :

- هل لعب الهواء براسي واثملتني انتعاشته ؟



خَفَتَ هدير المحرك رويداً رويداً ..

ظننت بأن المركب سيأخذ مكانه بجانب المرسى .

ولكـن زحفـت علينـا زوابـع قاصـفة .. راعـدة واجفـة قذف بها المد ..

تأرجح المركب بقوة ..

انكب الراقصون فوق بعضهم البعض ..

أضحوا كتلا من اللحم .

تلاشى هدير المحرك تماماً ..

سكن المركب .

هب قائده من على مقعده في الأمام ..

اعتلى مكانا ..

هتف :

- أيها الناس .. انتبهوا ! ، قد توقف المركب لسبب بسيط يمكن تداركه .

رد عليه أحد العراة وكلتا يديه في خصره :

- وما هو السبب ؟

- أبداً .. نفذ الوقود !

ثم أومأ برأسه إلى الحارس ، فقام بفرد ستارة بيضاء على طيات الظلام ..

انعكست عليها خيوط من أشعة متداخلة منبعثة من نافذة صغيرة في مؤخرة المركب ..

تحولت ذرات الإشعاعات على الستارة البيضاء إلى صور متحركة كلها لسلاطين وملوك طويت صفحاتهم في سفر التاريخ ، ومشاهد لمواقع حربية تموج بصهيل الجياد وصليل السيوف .

فارت الدماء من الأجساد ولطّخت وجوه المتفرجين على العرض الذي بدا وكأن الغرض منه هو التسلية .

شعرت بالخطر الزاحف علينا ، وأن هذا العرض ليس مجرد تسلية للركاب وإنما هو لإلهائهم .

هب احدهم منتصباً وفي عينيه صرخة اشتهاء لأكوام اللحم المترنحة .

خيل إليَّ بأنه قد افاق ، ولكنه ما لبث ان امسك بيد امراة وجذبها ثم تسلل بها خلف "كابينة" القائد - ظنا منه بأن هذا المكان لن يراه فيه احد - وانكب عليها وسافرا عبر الزمان والمكان ..

تحولت إليهما النظرات الملتهبة .

انتابت الجميع حالة من ضحك جنوني .

تقدم نحوهما آخر والشرر يتفلَّت من عينيه .

ظننت انه زوجها او اخوها ، ولكن سرعان ما خامره اشتهاء عنيف لجسمها .. استل سكينا - كان على المنضدة - وغرسه في ظهر الرجل ، ثم جذبه والقى به في الماء الحارق واحتل مكانه .

الحارس لا يزال مبتسما .. والقائد مثلج الصدر !

هل قدَّم لي صديقي شراباً مسكراً ؟

كيف .. ؟ وقد فتح امامي زجاجة "مياه غازية"، ورأيت بعيني الفقاعات تكاد تنزف من فمها .

هب رجل من على مقعده واجتاح صدره انفعال عنيف

- ماذا يحدث هنا ؟

رد عليه الحارس ببرود :

- لا عليك .. اهتم بحالك فقط واجلس .

نظرت إلى سطح المركب فوجدته لا يزال مفروشا باللحم الأخرس ، والحارس على مقعده مبتسم والقائد يولينا ظهره .

خرجتْ من بين أكوام اللحم تأوهات وشهقات مكتومة

ما يحدث هنا لا طاقة لي به !

طرأ على ذهني أن هناك في مكان ما على ظهر المركب "كاميرا خفية" .

هبَّ الرجل ثانياً .. صرخ في وجه الحارس :

- ألا ترى ؟

- بلى .. لقد ضقت بك ذرعاً .

سدد مسدسه نحو الرجل وأطلق بين حاجبيه رصاصة ثم انبرى نحو المنكمشين على مقاعدهم وصوب نحوهم .. أرداهم جميعاً ثم ألقى بهم في الماء واحداً تلو الآخر ، والقائد مكانه لا يحرك ساكناً .

٧

حرصت حينئذ ان اظل متوارياً في أعماق السكون ..

ادور ببصري بحثاً عن مكان "الكاميرا الخفية"، أو هذا المُخرج الذي لابد وانه سيقول "ستوب" .. "ستوب" لصليل السيوف والدماء التي فارت على وجوهنا فلم أعثر لكليهما على أثر !!

ايقنْتُ ان المركب قد اتى من زمن ما لا علم لي به ، وأنا في مكان ما خارج عن السيطرة .

ضاعت الاتجاهات والمركب يعلو ويهبط ..

خرج عن خط سيره بفعل التيارات الشديدة التي داهمتنا من كل صوب وحدب .

علت الأمواج .. صارت كالطود .

لقد غضب النهر غضبة لن ينجو منها أحدٌ .

افاقت كتل اللحم من حالتها الهستيرية .

اختلطت التأوهات بالشهقات .

حاولوا ارتداء ملابسهم المكوّمة .

ارتدى الرجال ملابس النساء، وارتدت النساء ملابس الرجال.

تداعت علينا من الأفق رياح الخطر .

رُجَّ المركب رجًا .

انتصف الليل على الأمواج الحارقة .

استيقظت الذكريات وغشي القلوب هم وكآبة .

تنبه القوم لنواميس الخطر الزاحف .

غشيت أبصارنا خيوط دخانية .

ارتفعت أكف الضراعة إلى السماء .

علتْ صرخات القلوب النادمة على ذلات تصارع أيادي الموت.

حينئذ لم أستطع ان أخفي رعشة جسدي .

كبلتنا جميعاً أسوار العجز الشاهقة ، واشتعلتْ أفئدتنا بالتوبة .

٨

لطالما استهوتني رائحة "السمك المشوي" واستسغتُ مذاقه ، ولم يطرأ على ذهني أنني ساكون مجرد وجبة تلتهمها الأسماك .

تناثرت آمالي ذرات في قبض الريح ، وتوارت في جراحي آلام التمني .

- هل هي العودة إلى الأصل ؟

- تلتهمنا اسماكنا ويأتي آخرون ليلتهموها ؟

توجه الحارس نحو القائد واشعل له لفافةً نفث دخانها بنشوة .. ثم اصدر أمراً بإيقاف آلة العرض .

تمرد علينا الوقت ..

خرجت من مكمني لأرى في العمق أيادي الموت تمتد .

رفعت راسي لأنظر إلى الشاطيء .

وجدت عن بعد لمبات متناثرة خافتة .

التفت إلى الناحية العكسية فوجدت ايضا لمبات متناثرة خافتة.. لا ادري اي اتجاه نقصد .



الابن البكر

۱

عندما جاء الولد .. انقشعت

ظلال الحرمان المزمن ..

انطفأت نيران كانت مشتعلة

سنوات طويلة ..

اشعلوا الشموع التي بعث

ضوؤها وملأ الدنيا..

فهذا الولد سيقيم البناية ويحقق الأمال ..

سيلقي بنفسه داخل دوائر الأحلام الوهمية ..

هل سيكون هو القربان .. ؟

۲

اهلا بالولد المكتسح ، الذي القت به المقادير املا في أن

يحرك الساكن ..

ها هو قد نطق الصمت ..

هو الأول لها، والعاشر له ، بينهما تسعة من البؤساء ..

خلفتهم أمهم ورحلت.. ثم جاءت ام الولد علي راسها
تاج شجرة الدر ..

تدوس بغطرسة علي نعيم زائل ..

أجهد صانعته قبيل الرحيل

عندما دخلت صاحبة التاج البلاط ..

قبلت يد الابن البكر الذي طالما حاول إرضاء ابيه المتمرد

تسللت كالحية الرقطاء ..

احتلت مكاناً ليس لها ..

مارست سلاح أنوثتها الطاغي عليه ..

٣

فيما مضى كان هو الأسد الرابض في عرينه ..

أرغمته أن يضع على رأسها التاج ..

باتت مصدر ثقته العمياء ..

استقرت علي كرسي العرش ، وهو يحبو تحت قدميها
..

والآن صارت الفرمانات جاهزة :

الفرمان الأول :

حضور ولي العهد المكتسح الذي سيسكن عرين الأسد

الفرمان الثاني:

قطع كل الخيوط التي تربط الأسد برعيته .

الفرمان الثالث :

تأمين المستقبل للمكتسح .

٤

شعر الابن البكر بأنه يتململ داخل شرنقة ، فقد انشق عليه الألم ..

بدات رحلة الوهم بالوهم ، وانتهت في احضان الحزن ..

تهللتْ حنايا الظلام على جسده البالي ، وتمزقت خواطره التي بعثها الجحيم إلى لهيب القلوب المستعرة ..

فكثرة تجرع الألم إما ان تصنع منه حكيمًا او معتوهًا ..

تلقى اللطمات تلو اللطمات ..

كانت اللطمة الكبرى ، التي عصفت به وكادت تجعله معتوهًا ، حينما اخبروه بأن رقبته لا تساوي نعلي (شجرة الدر) .

اهلاً بولي العهد المكتسح ، الذي جعل رقبة اخيه الأكبر لا تساوي مجرد نعال .

٥

كانت بالأمس القريب تُقبل يده ، ولما طلب منها ترتيب غرفته.

لعنته :

ايها الابن البكر .. انت مجرد مملوك يخدم في البلاط ..

تكفيك لقيمات تقيم بها صلبك .. مجرد لقيمات يابسات ..

لا تنظر إلى الولائم التي يتمرغ عليها الملوك خلف الأبواب الموصدة..

فأنت لست "اقطاي" او "ايبك" حتى تتجرأ على اسيادك ..

٦

وها هو "الأسد" يخرج من عرينه كاشفاً عن انيابه .

يصب عليه اللعنات صبًا ويكرر ما قاله سلفاً .

لكن هذه المرة في وجه ابنه البكر :

اعلم ايها البكر أن رقبتك لا تساوي نعلي الملكة ..

تخدر جسده النحيل ..

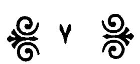
توقف به الزمن ، وهو يتابع ثورة الأسد الذي لو علم بأن نهاية مليكته ستكون ضربًا بالنعال على راسها حتى الموت ، لما تحرك لسانه بهذا القول .

اول فرحته .. جاء بعد سبع سنوات عجاف .. لم يترك فيها طبيباً ولا عرافا.

لأن لديه المال ، ويريد البنين .

يوم بشر بالابن البكر كان يظن بأنه سيحمل من بعده الراية.

تهللت اساريره.



غفل الابن البكر ما يخفيه القدر ، لأنه لو كان يعلمه لأدرك انه لن يكون سوى مملوك يخدم في بلاط شجرة الدر ، ولن تساوى رقبته مجرد نعل من جملة النعال التي حظيت بها بعد ان تشققت قدماها في براح المروج الغنّاء .. لقاء بضعة دراهم .. مع اقرانها التي اندست وسطهم ، حتى تدنو من العرين الذي تاقت كثيراً إلى الولوج فيه ..

والآن التأمت الشقوق بعد ان انتعلت ..

بات الأسد الغر مجرد قط يسعى حول العرش ..

يكبش بأظافره الحادة الأرض الرخامية ويلامس بشعره الناعم الكرسي المرصع بالألم ..

يطلب ودها .. بعد ان كانت تطلب هي رضاه حينما كانت ضمن حريم القصر ..

وطالما تنافست معهن ، بأن تحظى بليلة في غير موعدها .. بعدما بهرته بخطي الكحل الأسود حول عيون قد غرق الملك في بحرها ، ولثمته بشعر اسود بلون الليل مجدول وكثيف ..

رمته بنظرة ناعسة .. اختلج قلبه ..

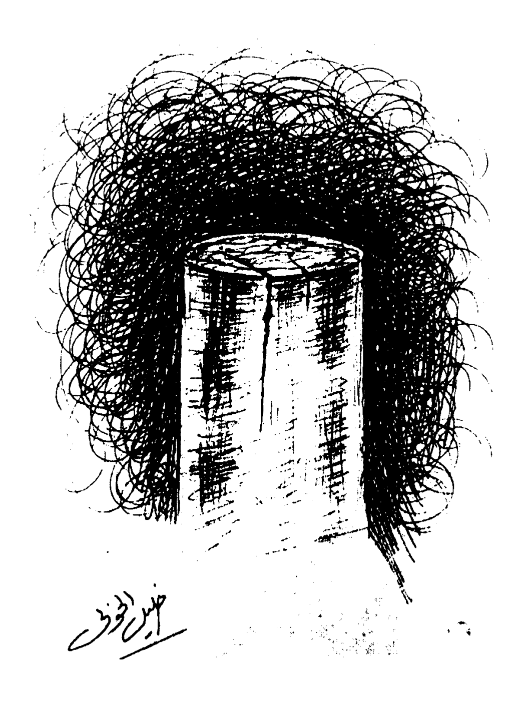
اختُزنت صورتها في مخه إلي حين ..

وتحول الأب المسئول ، صاحب الكلمة العليا والحكمة البالغة إلي صبي طائش ..

اصابه سحر الجواري ..

صبَّ جام غضبه علي ابنه البكر ، الذي لم يرتكب جريرة .. اضحى المستقبل أمام ناظريه شريطاً ممسوحاً ..

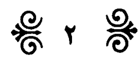
تحول الماضي إلي ظلام تسكنه الأشباح ، وها هو القصر قد تمخض عن جارية علي رأسها التاج .



مقام سيدنا الولي

۱

قبل أن ينشق الليل عن ضوء
خافت يرتعش ..
لاحت أطياف السحر الوردية ..
هدهدت سكون النفس ..
جَعلَتْه بطلا ..
يخرج من عمق الأساطير ..
يجوب أطراف الأرض ..
يتبختر على صفحة الماء الرقراقة متهاديًا ..
يَمْخُر عباب البحر مباهيًا ..
يرتدي طاقية الإخفاء ..
يتسلل عبر أماكن محظورة ..
يرى ما لا يراه الآخرون ..



بات مخزنًا للأسرار .. محاكيًا للأشرار ..

شيئا غير عادي لا يشق له غبار ..

وقف على شفير الزمان والمكان ..

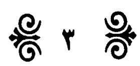
كل الأشياء تحولت إلى معادلات صعبة.. تَمَخَّضَ عنها الوهم والأسطورة .

صانعوا الأحلام نبتت لهم أياد طويلة ، ممسكة بكلاليب مزقت طموحه.

ما لهذا الوحش اضحى مستكينًا ؟

لا يستحوذ حتى على نفسه العليلة.

تساقطت احلامه اللبنية والمستديمة ..



صار يرجف عندما يرى طفلا يبكي ،أو امراة تتأوه ، أو شيخا يتأفف ..

لم يبق منه سوى بقايا أحاديث مهترئة ..

نسجت قصصًا اثيرية.

تطـوف بأخيلـة المحـدثين فـوق اعنـاق النخيـل الـتي طاولت عنان السماء ، وهمست منذرة بعواصف رعدية قادمة من هذه السقيفة الرابضة في مدخل البلد .

قال أحدهم مرة :

- لو نبشنا الثرى من تحتها ، سيظهر لنا شاهد القبر الذي دفن فيه سيدنا الولي ..

قال آخر :

- إن الخمسة افدنه التي تُحيط بهذه السقيفة وقْفٌ له .. فَلَحَها أحد مريديه ، ثم فَلَحَها من بعده ولداه قبل أن يتنازعاها فيما بينهما.

٤

كانت تكفي أفواهًا كثيرة قمحا وخضراوات .. الآن ضاعت عليهما .

سألني عن السر ..!

تبادر إلى ذهني .. (أنهم قد ابتلوا بنقص من الثمرات)..

لا يفيد كل هذا .. فهما يتباريان في ساحات المحاكم .

حكَمَت لأحدهما فتسلمها من اخيه محملة بالخيرات ، ثم ما لبث الآخر ان تسلمها بعده محملة أيضا .. بناء على حكم آخر .

حصاداً يكفي الأفواه المفتوحة .. والأفواه التي لم تفتح

كانت السقيفة تمتلئ خيراً يذهب هنا وهناك وذلك قبل ان يُشطر القمر .

ومخزنا لكل خيرات الدنيا ، وقد باركها سيدنا الولي ..

وعندما رحل .. قلّت البركة ..

سألته :

- اين ذهب ؟

- لا أعلم .. ظهر فجأة واختفى فجأة ومعه كل أسراره .

- هل مات ؟

- ربما .. وربما ترك البلد بعدما تفاقمت خطايا البشر ، ودنست السقيفة .

- الآن باتت مهجورة .

- يقولون ان الأشباح قد سكنتها ..

سمع أحدهم انينا وشهقات آدمية مستعرة في جوف الظلام فهاب الاقتراب منها.. واحيانا يرى دخانا يتصاعد ولكنها لا تحترق .

- ألم يفكر احد أن يحاول رؤية هذه الأشباح ؟

- لم يجرؤ على ذلك أحد .

- لم ؟

- خوفا من ان تصيبه اللعنة ..

غير أن الأشباح لا تهاب اللعنات ..

بدا صاحبي غاضبا . قال:

- السقيفة شامخة .. تسكنها الأشباح .. تسكنها الوطاويط .. لا يهم .. لم تكن يوما ملكا لآخر .

- برغم انها مأوى للمستظلين في النهار وبالليل مأوى للأشباح ..

انزلق إلى العمق ..

وجد مسوخا ترتدي سلاسل ذهبية حول أعناقها،

وأخرى بطونها تزمجر غاضبة ..

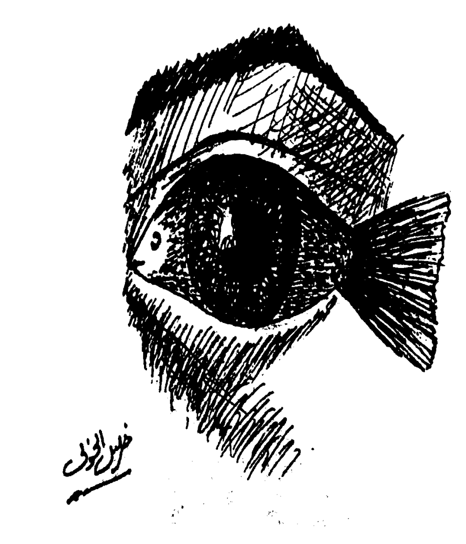
انحشر داخل أجساد بشرية ملتهبة ..

يصيحون .. يطلبون المدد ..

.. يطْمَحُون في دخول الجنة ..

بدأ ثانيا من نقطة الصفر .. أملا في أن تحل عليه البركة

حتى الأشباح تجازوا نقطة الصفر .



أولاد الظلام

١

توقف بى الزمن وانا اتابع عن كثب ثورته العارمة فى وجهه الذى تحولت ملامحه إلى اخاديد ونتوءات طولية وعرضية ...

مرت بيننا لحظات بطيئة باردة من الصمت الثقيل ..

دار بخلدى خلالها اشياء من اساطير الأولين .

جلس امامى كتمثال ...

اخذ نفسًا عميقًا افرغ به هواء الغرفة ثم استوت اخاديده وتجاعيده ...

اخرج من جيبه مجموعة من الصور لأطفال كالأشباح .. ملامحهم مغلفة بالبشاعة .

عيونهم مقفولة بالصمغ وافواههم مملوءة بالسائل الأبيض .

ملابسهم مهترئة لا تستر لهم عوره .

ضاقت علينا جدران الغرفة ....

سألنى :

- ماذا ألم بك ؟

- من أين لك بهذه الصور ؟

- من الدياجى ... هم بالملايين ... ظاهرة متحركة متغيرة ... عجينة لينة فى يد مستغلة ! ... سوس ينخر فى الهيكل .

٢

تحرك بنا الزمن بطيئًا إلى أبواب الفجر الملتهب ...

زحفت علينا ظلال الوهم الرمادية ....

تحولت نفسى إلى كيانات متمردة ثائرة ..

صببت على رأسه جام غضبى :

-أيها الفوضوى اللئيم ... أشم فيك رائحة الكذب .

أتجرؤ على تشويه البراءة ؟

ارتسم وجهه بالأخاديد ثانيًا ..

قال :

-هَلُم معى الآن سأريك اشباحًا ليلية هامدة فى ظلمات الأرض..

توجه صوب خزانة الطعام الصامدة فى ركن الغرفة ... كشف عنها الغطاء واخذ لفافة (السمك المشوى) الذى ابتعته بالأمس وانفلتنا معاً إلى الشارع المظلم ...

الندى يبلل كل شيء ... الجو لا زال مضببًا ومعبأ بأبخرة مائية ...

وقفنا لحظات امام فُوّهة نفق معتم ثم هبطنا درجاته ...

سمعنا اصواتًا مفزعة تصدر من عمق الظلام تَركَت أثراً سيئًا فى نفوسنا ...

اجسام آدمية مبعثرة بجانب الحائط الأسطوانى ...

ملابسهم غارقة فى النفط الجاف ...

تتقافز عليهم هررة وجرذان ، وكلاب تتشمم زرقها من حولهم ..

أُناس يسرعون الخطا يقذفونهم بنظرات ازدراء وتوجس

يتخطون اجسامهم كما يتخطون برك الماء الآسن .

دلف إلى العمق فى لحظات ....

هتف على احدهم بصوت خفيض ..

اتى إليه ولد - يحتضن بين يديه هرة - ملبيًا .

شعرت بحرارة اللقاء تسرى فى عروقى المتجمدة ...

تكلما همساً ..

مد يديه للولد بلفافة الطعام فانطلقت رائحته المغرية ..

استقبلتها الهررة الجوعى بهلع الاشتياق ...

تجمعت هررة الحى والأحياء المجاورة ...

ارتفع مواؤهم ...

صار كصراخ الأطفال ...

أيقظوا الأجسام الهامدة من سباتها العميق .

التف على عَقِبيه .. انطلق خارج العمق الأسود كالسهم فى المدى ، وفى إثره طوفان يهدر .. فقد هرعت خلفه الهررة والأطفال والكلاب ، وانا من خلفهم جميعًا ...

فقد صَدَقَ واخرج الوهم من رأسى ....

عندئذ سمعت نواميس الخطر القادم من عمق المستحيل.

٤

اكتظ الشارع .. تناقم خطر الهدير كلما مَر من اعلى جسر أو من أمام نفق ....

امتلأت الدنيا صراخًا عندما أعلنت الكلاب الحرب على الهررة ..

لا يزال يركض وفى إثره الهدير ، وانا خلفهم .

سُد الشارع ... فُتِّحتَ الشرفات ....

فزعت المدينة على صراخ الأشباح الليلية .

تحطمت بقايا الدجى على حطام جسدى ...

طرقنا شوارع امتدت بنا فى عمق الوهم.. داخل مدينة الأنفاق والجسور والأحلام ، على رأسى سحابة من الجراد ، الذى ضل طريقه وجاء يستنشق عبير الخلود فى أرض خُلد اسمها أبد الدهر .

ارتفع الصراخ إلى سماء المدينة الخالدة .....

تجمد كل شيء في مكانه بعدما انقشعت من عليه رائحة الليل .

ضغط على الجُرح ...

جعله ينزف سيلاً من الألم ......

تدفقت علينا الأشلاء من كل اتجاه .

لا يزال يركض ومن خلفه الأشباح الليلية .. تهدر من عمق المستحيل ، وأنا أعدو خلفهم مترنحاً ولا زالت الشرفات مفتوحة ...

يطل منها بشر قدوا من حجارة.

توهّمتُ بأن هذه الأشباح قد خرجت من عمق الزمن الغابر وعلى رءوسهم اقنعة حمراء .. وكلما تقدموا خطوة ازدادوا عددًا ....

اضحوا كالموج الهادر ...

لم اكن اعرف شيئًا عن أولاد الظلام ، التى لفظتهم بيوت لم تحملهم وهنًا ..

أرحام قد دفعت أجّنة إلى قبضة قاسية ..

قذفت بها إلى المجهول ..

بل جاءوا من لحظة متعة زائفة ..

وتاهوا فى غياهب الشتات الأسود.

بدا عليه الإنهاك عندما وصل إلى الساحة الرئيسية ....

وقف لاهثًا وما زالت لفافة الطعام بيده .

دبت الحياة فى الأجسام الهامدة مع بداية يوم جديد ..

إلتفّت الهررة والكلاب والأطفال حول صاحبى الذى توسط الساحة .

ضاقت عليه الدائرة ...

نهشته الأشباح الليلية ....

غاب عن نظرى ..

٦

ترامى إلى مسامعى عواء سيارات الشرطة وهى تخترق الساحة ..

وما إن وصلتُ حتى انفك من عليه الحصار

اختفى كل شيء في ثنايا الزمن ..

لم أجد أمامى إلا هو ...

يقف وسط الساحة عاريًا كما ولدته أمه .

لا يوجد معه أثر للفافة الطعام .

وبينما يوارى سوأته ...

تقدم نحوه شرطى وصفعه على وجهه..

زج به داخل العربة ، وعادوا به مسرعين .

وجهوا إليه تهمة تحريض الهررة والكلاب والأطفال على إصابة المدينة - الغارقة فى الهدوء - بالذعر .

وقرأت في أحد بنود الإتهام :

شاب فى الثلاثين ضُبط عاريًا في ميدان عام ، وتم تحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية حفاظا على أمن المدينة .



نظـرة

امتدت هواجسه خارج الإطار .

تمردت نفسه .. ذابت في عمق الوهم .

طرق ذهنه ابوابًا موصدة على أسرارها .

المعاني الصامتة قهرًا .. لا تفارق أحلامه

تدور في فلك التمنى .

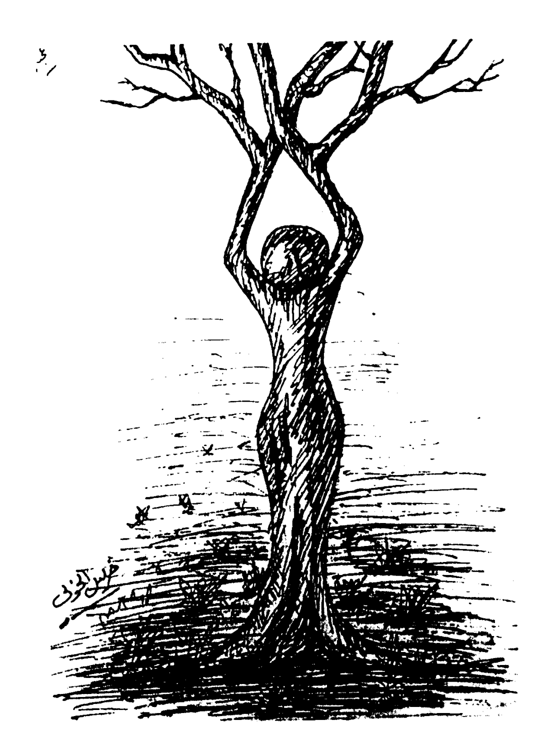
تنشد الأمل في أرض الكبرياء .

رآها تقف في التراس يداعب الهواء شعرها ..

حاضرة المعاني ..

رمته بنظرة خارج الإطار ..

حركت بداخله كل الأسرار .



عجباوي

١

يسبح " عجباوى فى بحر من الدهون ... حياته أشبه بكابوس مزعج. يسمع انينًا صادراً من اعماق نفسه وصرخات مكبوتة تعصف بثنايا الجسد المستكين ...

لم يفطن ان شفاء الروح يجب ان يأتى قبل شفاء الجسد ...

يتخلل الأطفال وهم يلعبون بالكرة فى عُرض الحارة التى تفوح منها رائحة التوابل ودخان النرجيلة ..

يصيح أحد الأطفال :

- الحقوا يا ولاد ..... عجباوى !

يتركون الكرة ... يتحرشون به ... يزفُونه ثم يقذفونه بالحجارة ...

يهرول مذعوراً ... تتراقص الدهون على جسده الثقيل

تحت الجلباب الواسع ....

يتمنى ان تُشق الأرض وتبتلعه ...

يلعنهم ...

يلعنونه ...

يلتقط حجراً ... يرفع يده ليقذفهم ...

يتجمد مكانه وذراعه منتصبة لأعلي والحجر بين اصابعه الغلاظ .....

يلقى الحجر في أسى ويمشى ....

يلعن هذه السمنة ....

يبرطم :

- لماذا أسمتني امي " عجباوى " ؟

فلطالما تمنت امه أن يكون لها ولد يسندها ويحميها وتتعاجب به .

لا يعلم بأنها تجهل أن غدده ستخونه وتفعل معه هذه الفعلة الشنعاء...

يمزقه الألم عندما يرى غيره يمشى في الحارة برشاقة .

طالما استهوته رؤية الفاتنات المشوقات

يتبخترن وهن يرتدين "الاسترتشات" التي تشرح

تفاصيل الأجسام الملهبة لخياله البائس ..

تذهب خواطره وأمانيه العميقة إلي اماكن محظورة ....

رغبة منه في تلبية مطالب جسمه ..

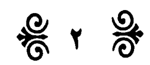
يتلظى شوقاً إلي عبور المناطق التي تحرك أوتاره الحساسة ..

تضطرم النيران في أوردته ..

يرفض عقله مطالب هذا الجسد البائس ...

دلائل ملحة جعلته يرغب بشدة في ان يكون عجباوى بحق ، وينفلت من براثن الظلام والحرمان والرغبة المكبوتة ...

قرر إبرام معاهدة صلح مع نفسه ...



بدأ يُروض رغبته الجامحة.

يُسكن الروح ويطهرها ...

تطلع إلي الالتزام في أرض العصاه ...

قرر معالجة الجسد المترنخ.

وادرك ان طهارة الجسد والروح لا تاتي سوى بالإلتزام.

قبل ان ينحشر داخل إطار باب " العيادة " .

اسرع "التومرجي " وفتحه علي مصراعيه :

قال :

- اين الطبيب ؟

وارتمي علي اقرب مقعد في بهو الانتظار .. فتهشم المقعد ...

صاح " التومرجي " :

- حرام عليك !

شعر " عجباوى " بالحرج الشديد ، ونهض مثقلاً بألم النفس .

سأله الطبيب :

- ما اسمك ؟

- عجباوى ...

- قف فوق الميزان .

- يا للهول .... تفضل !

رفض " عجباوى " أن يجلس علي المقعد المواجه للطبيب حتى لا يتهشم ايضاً .

فطن الطبيب لما دار بخلد " عجباوى " ، واستمر في كتابة " الروشتة " .

يتشبث عجباوى في أوتار الأمل المنتحر ، وهو يحدق بذهول إلي الورقة السحرية التي ستجعله " عجباوى " بحق ....

عجباوى الرشيق الذي سيلهب خيال الحسناوات ...

هذه الورقة التي ستجعله يُحلق كفراشة ، تشعل الأفئدة وتفجر آماله المدفونة في صدره الملتهب.

يخلع الجلباب الواسع الذي يوارى طيات اللحم الرجراج ، ويرتدي البنطلون .

ولن يُفزَع منه الأطفال ثانياً .

٣

التقط " عجباوى " الورقة المليئة بالمداد الأسود وانطلق كالفيل المذعور مستغلاً عضلاته القوية المدفونة في كتل الدهون .

هبط الحارة مفعماً بحيوية صنعها خياله وامتزجت بها روحه ...

تخلّص من خموله ..

شعر بسحر الرجولة يسري في عروقه ...

أُصيبت الصبية بذهول من هذا الوحش ، الذي انفلت من العصر الحجري وبيده فخذ بعير ينهشه .

كانت المفاجأة لأهل الحارة من هذا الكائن الخامل ، الذي أضحى قريباً من التوحش .

يفتعل حركات تثير الضحك أحياناً ، وتوحى بشراسة هذا الكائن أحياناً .

كان هذا بمثابة رسالة تحذير اطلقها "عجباوى" .

٤

بدأ يتتبع ذرات الحبر الأسود في الورقة السحرية التي اعتبرها شهادة ميلاده .

خرجت أمه العجوز من الغرفة مذهولة .

حدق فيها بنظرة متمردة وقال :

- اذهبي يا أم "عجباوى" ... اخطبى لي "سومة" !

وبعد أن انتهى من تنفيذ الأوامر السحرية الممزوجة بذرات المداد ...

انتظر النتيجة التي لم تأت عليه بخير ...

فوزنه بدأ يزداد رويداً رويداً ...

تملكه الشطط ... تميز حنقاً وغضباً علي الحبر الأسود
وعلي امه وعلي أهل الحارة جميعاً ...

لم يرحمه أحد ...

٥

سمع كلام لا تسر الأذن سماعه ...

ضاق ذرعًا بالحياة ...

أحدث فى الحارة ضجة لا تخمد ...

بات كالوحش ...

استمد قوته من إيلام الأخرين ...

نطقت ذاته المكدوده فى أرض المخلوقات العجيبة ...

تجلت فى عينيه نظرات شرسة .

التفت حوله الصبية مُهللين ...

يزفون هذا الوحش الأسطورى !

وقف فى عُرض الحارة التى ضاقت عليه ....

التقط أحد الأطفال .. ألقى به على الأرض

صرخ الولد مستغيثاً ..

جاء أبوه الأستاذ "فراج" فزعاً .. صفع عجباوى ..

فدفعه عجباوى فى صدره دون وعى فزحف على بازلت الحارة ...

شعر بامتهان لكرامته ...

تجمعت عائلته لضرب "عجباوى" .

تجمع أهل الحارة لمشاهدة الخلاف الذى شجر بين عائلة الأستاذ "فراج" و "عجباوى" الذى التهبت أعصابه فى هذا اليوم القائظ وتملكه هذيان محموم لأنه شعر بامتهان لكرامته أيضاً .

أضحى كائناً متوحشاً انقرضت فصيلته ولم يبق غيره .

٧ ٦

أطلق العنان لغضبه الجارف الذى أطاح بجميع أفراد عائلة "فراج" فى كل اتجاه ....

فرش بازلت الحارة .. الأسود بأقفاص الخضر والفاكهة ...

دعت عليه ستوتة بائعة الخضر :

- منك لله يا عجباوى !!

نُصبت معركة فى الحارة قوامها البطيخ والطماطم وأكواب العصير ، وزجاج دكان "جنة الفواكه" وكراسى مقهى "أبو دحه" التى تطايرت فوق الرءوس ....

تجلّت الأحقاد وتاهت الأطراف فى الوطيس .

هُرعت أمه بجرمها النحيل .. تتحسسّ مكانها وسط الزحام بحثا عن ولدها عجيباوى

صرخت :

– يا ناس .... عجيباوى فين يا ناس .... ؟

تاه عجيباوى وسط الزحام .

الطبيب يتوسط نافذة العيادة فى الطابق الثانى ....

يرى عن كثب ما يحدث ويُحمّل نفسه ذنب ما حدث للعجيباوى ..

٧

صرخ "عجيباوى" صرخة مدوية عندما غُرس كعب زجاجة فى قدمه فسال الدم بغزارة ....

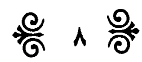
جلس متكئًا بظهره على حائط دكان "متجر الأفراح" .... يبكى بحرارة ....

شاهده الولد – ابن الأستاذ "فراج" – فتلقف مسرعاً

داخل دكان " المنجد " واحضر بعضا من قطع القماش الممزق ، جلس عند قدم "عجباوى" الممدودة وطفق يضمد له الجُرح ويلف قدمه بالقماش ...

تحسس الوحش الجريح شَعر الولد فى حنو وترقرت عيناه بالدموع ...

تنبه بعض من أهل الحارة لما حدث لعجباوى فهرعوا نحوه .. تزاحموا حوله ... هموا بحمله إلى عيادة الطبيب .



اتى احدهم بعربة "كارو" منكفئة على وجهها بجوار الطوار ورفعوا "عجباوى" "متكاتفين على ظهرها ...

مسك آخر مقدمة العربة ودفعها الباقون من الخلف ، وفى إثرهم كُل أهل الحارة مطأطئي الرءوس كمن يمشون فى جنازة عجباوى الذي يترجرج جسمه وهو متسلق على ظهره فوق العربة . والقماش الملفوف على قدمه غارق بالدم .

اطلقت أمه صراخها :

- يا ضنايا يا بنى ... عجباوى مات يا ولاد !!.

وعندما وصل المشهد أمام "العيادة" لم يتمكنوا من حمل "عجباوى" إلى الطابق الثانى ...

٩

هبط الطبيب وخلفه التومرجى يحمل الحقيبة السوداء ...

افسحوا الطريق إلى عجباوى ...

قام الطبيب بفك القماش الغارق بالدم .... ضمد قدم "عجباوى" ...

وقف نزيف الوطيس ... سكنت الحارة...

تسللوا من حول العربة واحداً تلو الأخر ...

منهم من يضرب كفاً بكف ومنهم من ...

وفى لحظة سكون مع النفس ....

عصفت موجة هستيرية بلب "الطبيب" وألح عليه هاجس قادم من حضوره الذكى ....

همس فى اذن عجباوى :

- آسف يا عجباوى ستنتهى حياتك بعد اربعين يومًا .

١٠

لم يفطن عجباوى – من شدة الألم -لما قال الطبيب..
سمع كلامه كطنين قادم من كابوس مزعج .

ضربت أمه صدرها المنخفض ..

صرخت :

- يا خسارة شبابك يا ولدى!

والباقون اداروا العربة وتوجهوا إلى منزل عجباوى الذى تراءى له – بعد ان افترش الأرض داخل منزله – صور الأموات الذين كان يعهدهم.. بعدما ادرك ان عمره على ظهر الأرض لن يتجاوز الأربعين يومًا.

١١

- استبد به خوف لم يعرف كنهه .....

أطلق العنان لخياله وهو يصر اذنيه لكلام أمه التى تنوح :

- يا ولدي !

لازال فى شروده :

- والآن يا عجباوى ؟

- ماذا قدمت لأخرتك ...؟

كُلُ هذه الدهون ستكون غذاءً لدود الأرض وكل شيء سيعود لأصله فى النهاية ...

لم يبك برغم أن عينيه حُبليان بالدموع ..

الحت عليه الهواجس إلحاحًا وعصفت بالوحش الأسطورى ....

شعر بأن الطريق إلى "سومه" قد تلاشى ...

شعرت أمه بالهم الدفين بين ضلوعه المحترقة ...

تذوق طعم الألم فى الفُتات اليابس والماء .

يزوره الطبيب يومياً ومعه الميزان ....

تعَجَّب عجباوى من هذا الاهتمام ، وشك أن فى الأمر شيئاً بيد أن الدهون بدأت فى التلاشى من على جسده بعد أن اكلتها الهموم ....

تحققت أمنية أمه التى أسمته عجباوى ...... وعاد عجباوى .



الذبيحة

۱

الهبت الشمس ظهر وهدان ..
فاسود قفاه وذراعاه ..
وهو محني يقضب جذور "الكرات"
المغروسة في الأديم الحاصب .
انتصب واقفاً عندما شعر بوسطه
يؤلمه .

اطبق بكفه على اسفل ظهره ..

ضغط على الألم ...

صك نواجزه ..

ضاقت حدقتاه ..

تكرمش وجهه المُلَوَّح وهو يتطلع إلى الطير السابح في عين الشمس .. بينما السحب الرمادية تتحسس طريقها في الفضاء الأزرق الذي يلف قريته .

زوجته " نفيسة " تفترش الأرض داخل السقيفة المتوارية تحت التوتة الوارفة ، تستند بظهرها على عمود من الخشب

يقيم سقفها الواهي .

توجه نحوها بخطى ثقيلة ..

فك الحزام القماش المهترىء .. مسح حبات العرق المتناثرة على وجهه الملتهب .

جلس متكئا بظهره على جزع التوتة التي احتضنته كام حانية .

قال :

- قومي يا نفيسة اعملي كباية شاي .

لثمته عيونها البراح التي تشع نظرات تتحدى الألم .

هبت تجرجر في زيها الفضفاض المزركش بالورد والقصب ..

اخذت (البراد) وكوبين من الزجاج واتجهت صوب (طلمبة المياه) .

اطبقت بأصابعها الرفيعة الخشنة على اليد الحديدية ودفعتها لأسفل فاجترت المياه الرقراقة المتدفقة من أعماق الأرض .

اشعل وهدان النار وهو يجلس القرفصاء ، عظام ظهره بارزة من خلال القميص "ابو سمكة " المصبوغ بالعرق

الأصفر .

شرع في تكسير اعواد الحطب الجاف على ركبته العجفاء وأشعل عود الثقاب .

قال :

- جهزتي الأكل يا نفيسة ؟

توجه صوب (حزم الكرات) المكومة على جسر الترعة المحجور ، أخذ حزمتين قام بغسلهما .

بينما قامت " نفيسة " بفك صرة الأكل .

جلسا يتناولان طعامهما في سعادة غامرة و البراد امامهما يقرقر .

فكر وهدان أن ينعم بها في هذا السكون ..

همس مداعبًا :

- اختشي يا راجل .. لما نروح الدار .

وما برح أن مرق الواد "خليل العبيط " بطاقيته المخرومة والمخلة المعلقة على صدره .. يحجل على رجل ونصف .. حافي القدمين .

ضحك بهبل :

- كيف حالك يا وهدان ؟

- تعالى يا واد يا خليل الغدا .

- غدا إيه يا وهدان إنت جلتك حاجة ؟

واختفى كالطيف ..

مزق الألم وهدان وعصره .

وبذكاء فطري قالت نفيسة :

- هذا ولد أهبل .. احنا نملك قيراطين.. ماذا عنده ؟

كان موسم ضَم القمح .. كُسرت القيالة .. بدات الجمال تمر من أمامهما محملة بأكوام القمح الذهبية فرادي وجماعات .

طفق يحصيها وهي تغدو وتروح :

- أجر تحميل الفدان "نصف أردب" ..

- اضمر في نفسه الحسد على ما في يد غيره ..

- ضاق صدره بما حوى .

زفر :

- قومي يا وليه صبي الشاى .

نهض يغسل حزم " الكرات" ويضعها في " المشنة " حانقاً .

قالت :

-انت تعد على الناس رزقهم يا وهدان ..حرام عليك !

٢

تعانقت الشمس مع الأرض وباتت في الأفق قرصًا أحمر وهما يتوجهان إلى الدار في الناحية الشرقية من البلد .. مرورًا بشارع داير الناحية .. ثم ولجوا حارة ملتوية ضيقة ، الكلاب تهب فزعة من مرقدها للقيام بدورها في النباح في البلد المظلمة ، إلا من نور خافت يتسرب من بعض النوافذ الموارية .

دفع الباب الثقيل فأحدث صريرًا مؤلمًا .

ارتقت نفيسة السلم الطيني في (وسط الدار) .. لتضع (مشنة الكرات) في الندى .

نظر إلى صفائح الحمام المعلقة والحمام منكمش عليها .

تموج بداخله هواجس متمردة تدفعه إلى التغيير

ازدرد ريقه المُر حينما تذكر كلام (خليل العبيط):

- " إنت حلتك حاجه ياوهدان "؟

دلف إلى الغرفة الوحيدة في داره ..

اسرج المصباح الذي أرسل ضوءه الباهت ، وصبغ

الحيطان الجيرية المقشورة بلون داكن .

امسك بذيل جلبابه الواسع ورفعه لأعلى كي ينزعه عن جسمه النحيل ، فابتلع الجلباب الطاقية الوبر البني من على رأسه ..

قذف به في حنق .

اعتلى السرير ذا الأعمدة الحديدية السوداء المُزينة بالنحاس الأصفر عند القوائم ..

اضطجع واشعل لفافة .

داهمته فكرة بيع القيراطين وشراء جمل ..

حسب حسبته ..

وجد انه قبل أن ينصرم هذا الموسم .. سيمتلك من أرادب القمح ما يشترى به جملاً ثانيًا .. ثم يشرع في شراء أرض أخرى .

هبطت نفيسة من أعلى السطح ..

خلعت ملابسها .. اغتسلت ثم ارتدت قميص ستان احمر لتلهب به مشاعر وهدان ..

ارخت جدائلها السوداء الكثيفة ..

تهادت بدلع .

اضطجعت بجانبه متهللة .

غرس عينيه في صدرها النافر .. القى بالسيجارة ..

سعل وتمخض ثم بصق بجانب السرير .

قال :

- ساشترى الجمل .

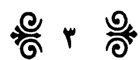
- من أين يا وهدان ؟

- سأبيع القيراطين .

- يا لهوي ! اتهبلت يا وهدان .. ارض بنصيبك وبلاش طمع .

تلمس نبرة قناعة وإخلاص في صوتها الذي يشبه شدو الحمام ..

رأى الفرحة قد غابت عن ملامحها .



بات يضمر بيع القيراطين لجاره (فواز) ..

يعلم أن ثمنهما الفان من الجنيهات وهذا المبلغ كفيل بابتياع الجمل .

ما برحت نفيسة ان ادركت ان حياتهما في خطر

ريثما أحست بنفث الشيطان في اذن زوجها ، الذي تأججت بداخله جمرات الحقد والطمع .

هبط من على السرير ..

رفع (القلة) على فمه ..

انساب الماء في حلقه بكثرة حتى اغرق رقبته وصدره ..

وضعها وغمر زوجته بنظرة اشتهاء .

تمنت " نفيسة " أن تكون شربة الماء قد اطفأت الجمرات في صدره ولكنها ما لبثت أن استشعرت لهيبها فأولته ظهرها .

ادرك ان ليلته ضاعت هباءً .. أطفأ المصباح .. ارتقى السرير ثانية .

أطبق الصمت على الغرفة .. إلا من صفير الصراصير وقفزات أشباح من صنع خياله .. تسبح في ظلمة الغرفة الكئيبة .

مكثت تثبط من عزيمته وتنفث في أذنه :

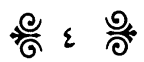
- لا تسمع كلامها يا وهدان ..

- الأيام تنفلت من بين يديك وأنت لا زلت عند

- دع هذه المرأة الكئيبة .. لا تطعها .. ..

- القناعة لن تشترى لك أرضًا ، ولا دارًا مثل دار العمدة " السباعي صالح " ..

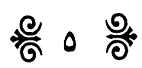
- بع يا رجل القيراطين واشتر الجمل .



كان ليله سرمديًا .

ومازالت أشباحه في أحضانه تجاهد في قض مضجعه:

- الجمل بثمن القيراطين ، وكلها لحظات ويتنفس الصبح وتأخذ نفيسة "مشنة الكرات" وتذهب للبندر توزعه على مطاعم الفول والطعمية وعندئذ .....



هبت نفيسة من نومها قبل بزوغ الشمس ..

غسلت وجهها وجهزت الإفطار ..

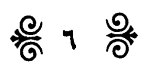
أيقظت زوجها وهي تتوجس من أمره :

- ماذا يحوي صدرك يا وهدان ؟

- عنـدك قـوت يومـك وزوجـة تعينـك علـى مصـائب الـدهر ، ودار تقيـك الحـر والـبرد وصحتك حديد .

أخذت حملها على رأسها وسعت .

ومـا إن خرجـت .. حتـى انفلـت متوجهًـا إلى دار "فواز" يعرض عليه بيع القيراطين .



بدات القرية تنبض بالحياة مرة أخرى .

التقـى الشـيخ "عـواد" إمـام الجـامع .. يـترنم بتسابيح صبحية .

قال له بضراعة :

- ادعُ لي يا مولانا ..

- بم ؟ .... اتأكل ....؟

- نعم .

- اتقوم بالإخراج ؟

- نعم .

- إذن بم ادعــو لــك؟ اقــول يــا رب اعــط وهــدان عزبة ؟

ولملم طرف جبته وتابع سيره مغمغمًا :

- يا فتاح يا عليم .

كــان وقــع هــذا الكــلام ذا تــأثير ســيئ علــى وهــدان ولكنه اصر على المضي قدمًا صوب دار "فواز" .

اسقط وهدان في القيراطين ..

قــبض الفــي جنيــه صــرهما في " المنــديل " وهــرع إلى سوق الجمال ..

ابتــاع واحــدا وعــاد يمتطــي ســنامه مباهيًــا وســط البلد .

٧

رمقــه "خليــل العبــيط" فضــحك ببلاهــة وظهــرت اسنانه القذرة المكسورة .

هتف على الصبيان مترنمًا :

- تعالوا يا ولاد شوفوا وهدان ..

- باع الأرض وموش ندمان !

تجمعت الصبية يزفونه وهو متبختر .

صاحوا بصوت طفولي حاد :

- يـا وهــدان .. يـا خيبــان .. بعـت الأرض ليــه يـا جبان .

لولا العمدة "السباعي صالح" نهرهم وانقذه منهم

٨

عادت نفيسة من البندر ..

رمقت الجمل في مناخه بوسط الدار مستكينًا .

ضربت صدرها .

صرخت :

- يا لهوي .. بعت القيراطين يا وهدان ؟

زعق الحاج "عثمان" من خارج الدار :

- يـا وهـدان أحضـر الجمـل وتعـال كـي تحمـل لنـا قمح الغيط البحري .

امتلأ زهوًا وهو يحدق في زوجته البائسة .

طلاوة العصر تداعب السنابل وهو يتمايل على سنام الجمل منتشيًا في طريقه إلى غيط الحاج "عثمان"

الجمل يجتهد في تفادي الشقوق العميقة بالأرض الشراقي ..

لما وصل .. أناخه ..

قام بفرد " السلب " على جانبي الجمل .

شرع في التحميل ، وما إن فرغ حتى أصرّ "السلب" على ظهر الجمل ..

صاح آمرًا الجمل بالنهوض ..

اطبق على زمامه ومشى أمامه ، وما برح أن تحرك خطوات قليلة حتى انزلقت رجل الجمل - اليمنى الأمامية - في شق عميق فهوى على الأرض مترنحًا وحمل القمح على ظهره يكبله .

۱۰

صرخ الجمل صرخة دوت في سماء البلد ..

هُرع الناس كالطوفان لإنقاذ الجمل الذي طلب الحلال في الحال .

صرخ أحدهم :

- من معه سكين؟

أخرج خليل " العبيط " سكيناً من مخلته ..

خلصوه من حمله .. ذبحوه .

وصلت نفيسة لاهثة ، حافية ورجلاها تنزفان من إبر القمح ..

رأت زوجها جاثيًا على ركبتيه يحسو التراب على رأسه ودموع الندم تنهمر من مقلتيه كالشلال .

دنت منه حانية .

أخذتها العبرة :

- فداك ألف جمل يا وهدان .

خليل العبيط يضحك :

- لا تغضب يا وهدان أهل البلد سيأكلوه .

تسابقت ايادي الناس متكاتفين ..

علقوا الذبيحة على فرع شجرة ..

تجمعت البلد عن بَكرة أبيها .. تواسيه وتبتاع لحم الجمل بسعر مضاعف .

جلس احدهم مفترشًا الأرض وأمامه قطعة قماش يضع عليها ثمن اللحم المبيع .. حتى انتهوا من توزيع لحم الجمل الذي تعشى به اهل البلد في هذه الليلة .

لملم الرجل أطراف قطعة القماش على النقود .. حث وهدان زوجته ومعهم "فواز" على العودة مع الأهالي

جلس الرجل في وسط الدار وفرد قطعة القماش أمام الجميع ..

احصى ثمن الذبيحة فوجده الفين من الجنيهات .



المستوقد

١

الوسْطانية قرية يشقها الرياح — الذي لم يجف يومًا — إلي نصفين..

علي صفحته الفضية الرقراقة تتهادي مراكب الصيد..

الشارع الرئيسي بمحازاته..

في اوله (المستوقد) ومن وسطه تتفرع حارة ضيقة ملتوية كشق الثعبان بها دار (عم متولي) المتواضعة..

تقف امامها عربته (الكارو) الصغيرة -الصندوق الخشبي الهابط بين عجلتين من الخشب المحاط بإطار من الكاوتشوك - بجانبها الحمار الأبيض الهزيل مربوطاً في حديد الشباك الذي يكاد أن يلامس الأرض ، يدس رأسه في وعاء به التبن والفول الجاف .

٢

تَنَفّس الصُبح الرطيب ..

هَب (عم متولي) وابنته (دوسه) من نومهما ..

توجهـا إلـي (المسـتوقد) مـتخللين أكـوام القمامـة الجافـة.. دنفـا إلـي المبنـى الأسـود حيـث توجـد (قـدرة القـول) الخاصة بهم وسط العشرات المرصوصة في انتظار أصحابها .

رائحـة الصبح المنبَلج علـي (مقلب القمامـة) الممـزوج بالبخار الصاعد من قِدَر الفول والدخان "كالشياط" يلسع الأنف ..

يلفح الصهد وجوه العمال الملوّحة ، يغطى أجسامهم (الهباب)..

الشعور بالالتزام جعلهم مستيقظين طوال الليل .

يلبون نداء البطون الخاوية .

٣

عادت (دوسه) إلي الدار مسرعة.. مفعمة بالأنوثة البكر الشرسة .

سَعَى ابوها إلي اكل عيشه .

الحمار يُجاهد في جر العربة المطلية باللون الأخضر .. علي اجنابها زخرفة " إن خلص الفول أنا موش مسئول " .

يحمل "عم متولي" هماً دفيناً بين ضلوعه.. فقد طعنه المشيب وخلفته كلها بنات ، وطالما شغله التفكير في أنه لو حدث له مكروه .. كيف ستحل دوسة محله ؟

له خط سير لا يتغير (ومن كثرة التكرار حفظ الحمار الطريق) .. معظم الأحيان تأخذ "عم متولي" السِّنَة معتمداً علي الحمار الذي لم يُخيِّب ظنه.. يقف في محطات معينه ..

عندئذ يستيقظ "عم متولي" .

٤

يتجمع حوله الأهالي .. يتناوبون أخذ حصصهم ..

في العودة يهنأ بال "عم متولي" .. بعدما فرغت "قدرة

الفول" وامتلأ جيبه "بالقروش".. فينام ، وبيده زمام "الحمار" حتى يصل أمام "الدار" .

ويظل نائماً حتى تلمحه زوجته أو إحدى بناته فتوقظه..

تقوم "دوسه" بتحرير "الحمار"، وتقدم له "علفته" الخاصة به .

۵

خبرة "عم متولي" لا تتعدى معرفته بتدميس الفول وله طريقة "سمحه" في معاملة " زبائنه" ..

يربطه الحنين "بالحمار" لطول معايشته له ..

فهو يتحدث معه ويحاوره وكثيراً ما اشتكي له مواجعه يهز " الحمار" راسه فاهماً ..

هذا "الحمار" سبقه "حمير" أخرى تعامل معها "عم متولي" علي هذا النحو ..

٦

حدث له ذات مرة ضائقة مادية..

أشاروا عليه ببيع الحمار فغضب الرجل غضباً شديداً ..

وتملكه القلق وكثيراً ما حدث نفسه :

- كيف تهون العشرة ؟

ولولا أن أحد أقاربه فك ضائقته لقتله الهم.

ومرة مرض الحمار .. فكان يسهر عليه بالليل ويجر عنه العربة بالنهار ..

وعندما حاولت زوجته منعه لخوفها عليه .. رفض لشعوره الشديد بالالتزام ، ولاعتقاده بأنه لو تأخر يوماً عن زبائنه فإنهم سيجوعون ..

وفي قرارة نفسه ، أنه مكمّل لدائرة هو جزء منها ..

وفي الدار تقوم (دوسه) بفرز الفول قبل إعداده للتدميس.

٧

وجاء اليوم الذي طالما توجس منه عم متولي .. فبينما هو جالس وسط بناته .

يتسامرون بعد تناولهم العشاء في ليلة صيف هادئة ..

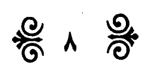
شعر بصدره يؤلمه ..

كثيراً ما كان يسعل من كثرة استنشاقه لدخان (المستوقد) ..

تسارعت أنفاسه .. عظام صدره تعلو وتنخفض بسرعة..

زاد خفقان قلبه ..

شعر بقدوم الزائر الذي يأتي علي غير موعد ..



نهض من بينهم متثاقلاً ..

توجه نحو (العربة الخضراء) .. تحسسها ..

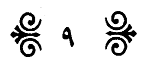
امعن النظر في الزخرفة الكتابية (إن خلص الفول انا موش مسئول) .

ادرك معناها للمرة الأولي إن خلص العمر ماذا سيفعلون ؟ ..

طوال عمره يحافظ علي بناته ويُطعمهن بتحامله علي نفسه اثناء مرضه .

والآن ستخرج (دوسه) لأنها الكبرى.. ستكون هي المسئوله عن امها الهزيلة واخواتها الصغار

(انت الأن تحتضر مخلفاً وراءك إرثاً عظيماً من الألم وشظف العيش) .



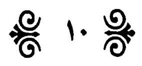
تكبلت احلامه منذ الصغر .

ورث (قدرة الفول) والأن سيتركها لدوسه التي لا تعرف خط السير .. هذه النبتة البرية التي تجهل حقيقة الأشياء .

هل تعلم ما يخفيه القدر ؟

كيف ستجابه حياة ملؤها البؤس والشقاء ؟

حياة باتت ضيقة علي الضعيف. حياة صارت مرتعاً للمنافقين والذين يبيعون ضمائرهم لقاء لحظة من المتعة الزائفة .. حياة سكنتها المسوخ الجوفاء .



التفت ناحية الحمار الراقد علي جنبه مستكيناً .

ذرفت عيناه دمعات .. دنا منه .. جلس عند رأسه الملقاة علي الأرض .. تحسسها ..

رفع الحمار راسه .. التقت العين بالعين .

هب فزعاً :

-ما اصعب لحظات الوداع .. !

نهض "عم متولي" .. دنا منه .. تحسس شعره الأبيض ببطء .. طوق رقبته بحنان .. قبّل راسه

(يقولون إن الحيوانات ترى اشياء لا يراها الإنسان) ..

هل هي النهايات الحتمية التي لا أحد يدركها ؟

تنبهت العائلة ..

مددوه علي الحصير ..

التفوا حوله ..

مسكت (دوسه) يده ..

دلكت زوجته صدره ..

خرجت الكلمات من فمه المتقلص ذابلة قائلاً لدوسه :

-لا تخافي .. إن الحمار يعرف طريقه .



درس خصوصي

تجسد خوفه أمام ناظريه ..
طاعونًا كاد يلتهمه .
تعالت الصرخات .. لا يجوز أن
يمضي حياته في الانتظار
هل هو الخوف الكامن بداخله ؟
أم هو من الصابرين ؟

ذرات الجنون بداخله تتكاثر ..

تتصارع مع الصبر المستكين في أحضانه .

صراعه مع خوفه .. هل هو وهم يؤرقه ؟

طالما سأل نفسه :

-مم أخاف ؟ من نفسي .. أم هي هواجس تحيط بي ؟

نعم .. الدروس الخصوصية تبتلع راتبه .. تأخذه إلى حافة الهاوية .

يرى الدموع متحجرة في عينيي زوجته .. تأخذها عزة النفس .

تقول له :

- القليل يرضينا .

لكن الخوف يسكن الأشياء من حوله ..

صار عدوى تلاقحها الرياح .

من غير المعقول ان نخاطر

يقول لنفسه :

- انت رجل ولي.. والأولياء لا خوف عليهم

- لا .. الخوف أسلم من المخاطرة ..

تداعت عليه الأفكار بكثافة ..

يرنو إلى تحقيق ذاته المكدودة ..

ندت منه محاولات يائسة في قهر الخوف الرابض على منعطفات الطرق .

تموج بداخله أحاسيس غامضة.. تقوده إلى الظن بأن الخوف لن يتبدد على أطلاله ..

تلوح أمامه كل المعاني المفقودة ..

انتظر الأسهل ..

استساغ الأيسر .. وسحر التوجيه المستهدف .

هل يمكن ان يكون في الأمر مطمع.. مآرب سلطوي

طاغ..

الأمل لديه يمتد ..

طالما أن شعلة حياته لم تنطفئ بعد

الخوف يمتد إلى ما بعد الموت ..

وبعد الموت هل هناك خوف ؟

هل سيؤرق الخوف موته .. مثلما أرق حياته ؟

اللعنة على الخوف .. فإما أن يكون هناك شيء أو لا شيء .

هناك سبب / شيء يحقق له قدراً من ذاته ..

فلم تكن " الدروس الخصوصية " وحدها هي كل منغصاته.. بل تكاثر أرباب الوسايا المغتصبة.. التي ظنوا انهم ورثوها عن ابائهم وأجدادهم .. أرباب الوسايا الذين ابتلعوا كل شيء في بطونهم .

فهـرس

المؤلـف

سالم محمود سالم

روائي مصري

عضو اتحاد كتاب مصر

صدر له :

- خفافيش على هامش النار .... قصص

إيتراك للطباعة والنشر.. طبعة أولى ٢٠٠٤

طبعة ثانية ٢٠٠٧

- محاكمة طير البر ... رواية

بلنسية للطباعة والنشر .. طبعة أولى ٢٠٠٦

- قبض الريح ... قصص

بلنسية للطباعة والنشر .. طبعة أولى ٢٠٠٨

- الشوارع المغلقة ... رواية

الهيئة العامة للكتاب .. طبعة أولى ٢٠٠٨

قيد النشر :

- الكنز ... رواية